

تكريماً للعميد الأستاذ ريشار شمالي، كلمة البروفسور سليم دكاش اليسوعي، في محاضرة تحت عنوان "حقوق المودعين والأزمة المالية"، نظمتها كلية الحقوق والعلوم السياسية، في 31 أيار (مايو) 2022، في الساعة الثالثة من بعد الظهر، في مدرّج غولبنكيان - حرم العلوم الاجتماعية - بول هوفلين.

تكريماً للأستاذ ريشار شمالي، أراد عميد كلية الحقوق والعلوم السياسية تنظيم هذه الطاولة المستديرة القانونية والعلمية، وليست بالسياسية، حول "حقوق المودعين التي خضعت لاختبار الأزمة المالية".

لقد طغت الأزمة التي اندلعت في لبنان منذ العام 2019 على ريشار شمالي. بالإضافة إلى المعاناة الجسدية التي كان يتحملها برباطة جأش الرواقي، ولكن خصوصاً مع الإيمان المسيحي الراسخ الذي يتمتع به حس الإنسان الجبلي الذي ورثه عن أسلافه، ما كان يحدث على الساحة اللبنانية لم يكن غريباً عليه. هذا الوضع الذي يتخبّط بالمحن كان يسبّب له معاناة تتخطى آلامه الجسدية، لأنّه كان يرى لبنان الحريات والدولة الدستورية ينطفئ بسبب الأخطاء الجسيمة التي ارتكبت في الإدارة السياسية والاقتصادية للبلاد خلال أكثر من 35 عاماً، ولسوء الحظ، هذا الأمر يستمرّ.

ريشار شمالي، عميد كلية الحقوق والعلوم السياسية في جامعة القديس يوسف والأكاديمي، كان رجل قانون لا مثيل له في كفاءته ووضوحه وآرائه العادلة تماماً مثل القانون. كان أستاذاً ورجل قانون بارعاً، مهتماً بالقانون التجاري والقانون المدني والقانون الدولي الخاص والتحكيم الدولي، لكنّه كان مع كلّ هذا المستشار القانوني الجريء لرؤساء جامعة القديس يوسف حتى آخر رئيس مائل أمامكم. رؤساء الجامعة جان دوكرويه Jean Ducruet وسليم عبو ورينيه شاموسي René Chamussy وأنا نفسي لا يسعنا إلا أن ننحني أمام محاضرات وكتابات من كنّا نسميه في رئاسة الجامعة وفي مجلس الجامعة "العقل القانوني المستنير والحرّ"، هو من كان دائماً جاهزاً للخدمة ولا يتراجع أبداً أمام تأدية المهمة. في أسوأ لحظات تدهور صحته، لم يقل أبداً "لا"، ولم يكن يستطيع أن يقول "لا"، ولكن كان على من يطلب منه خدمة أن يتحلّى بالصبر إذا تأخّر بعض الشيء في الاستجابة. النظام الأساسي للجامعة وكلياتها، وشرعتها المنجزة في العام 1975، والعمل الضخم الذي قام به من أجل وحدة الجامعة، والفتاوى القضائية التي أصدرها، والدراسات القانونية حول أحد المواضيع الحساسة والمعقدة، والرأي القانوني المستنير كانت لمصلحة المؤسسة وحدها وليس لأي مصلحة خاصة أخرى.

عندما حظيتُ بامتياز مناقشة هذه النقطة القانونية أو تلك معه وشعرتُ بالسعادة من جرّاء ذلك، كنتُ أجد نفسي باستمرار في هذا الموقف الغريب كرئيس للجامعة يدرك أنّه في حضرة موسوعة تتقن التفاصيل القانونية للمشكلة أفضل من أي شخص آخر، مستخلصاً حججه من مساحات الفكر القانوني العميق. من الواضح أنّنا كنّا محظوظين، أيها الأستاذ العزيز، لأنك كنت معنا شعلة دائمة من الحماس والقوة في مسارات إدارتنا لأمننا المربية *Alma Mater*. من أجل توضيح تمكّنه في الحكم، أقترح عليكم ردّ فعله تجاه مشروع مذكرة تفاهم أبرم مع جامعة كانت قد أرسلت المشروع بنفسها. بعد قراءة الاقتراح، كتب لي ما يلي: "هذه الجامعة تعتقد ربّما أنّ مذكرة التفاهم كلّما كانت غامضة، وهشّة، وضبابيّة وهزيلة كانت الحماية التي توفرها لها أكثر أمناً. وهذا خطأ فادح! بالنظر إلى السياق، فإنّ مذكرة تفاهم كهذه لا يمكن إلا أن تُثير عدم الثقة. وحدها مذكرة تفاهم "محبكة جيّداً" والتي تتخذ على الأقلّ شكل الجديّة والموثوقيّة يمكن أن تحمي من ... دعونا نقول بعض المخاطر". أستاذنا العزيز، لا يزال إرثكم حيّاً ويساعدنا على مواصلة الطريق.

الحق يُقال، لم يكن ريشار شمالي يبحث عن المجاملات في عالم يعشق بعض الأساليب اللبنايية في القيام بالأعمال جيّدًا ؛ كان بالأحرى يعيش بامحاء وتواضع، خاصّة خلال السنوات الأخيرة من حياته في شقته في الأشرفيّة التي أصبحت نوعًا من مركز للأبحاث أو بالأحرى صومعة رهبانيّة، وهذا ما كان أكثر من كافٍ بالنسبة إليه كشخص أصبح القانون كهنوته. لقد أصبح ريشار شمالي، من خلال استقامته ونزاهته الفكرية والأخلاقية الأسطورية، الشاهد الذي أثار على الأجيال من خلال مقرّراته، وعلمه، ودعوه وإدارته للكليّة لمدة ستّة عشر عامًا. كلّ هذا يدفعنا للتعبير، اليوم كما في الأمس، عن الإعجاب والاحترام.

هذه هي الطريقة التي طبع بها ريشار شمالي كليته بهذا السلام الداخلي العميق وتأمين العمل المُنجَز جيّدًا. هذا السلام وهذا العمل كانا يرافقانه في كلّ مكان، محققًا الإنجاز الذي لا يمكن تصوّره المتمثّل في الحفاظ على سمعة التميّز، سواء في لبنان أو في الخارج، خلال أحلك السنوات التي عرفتها البلاد. بصمت، نجح الأستاذ شمالي في إعادة بناء جزيرة المقاومة هذه المخبّأة جيّدًا خلف أسوار شارع هوفلين، تلك الجزيرة التي كانت قد شاركت بفعاليّة في إنشاء دولة لبنان الكبير والتي غدّتها لأيام وليال من حيويّتها من أجل بنائها وترسيخ بنيتها الإدارية والقانونية والسياسية. كان أستاذنا العزيز يرى البلد الذي أحبّه، من خلال تكريس مهاراته له وإعداد أفضل خدماته له، وهو يغرق أكثر فأكثر في الرداءة والإهمال البعيدين جدًّا عن روح الكليّة وطريقة عملها التي كانت تنبؤًا، بنظر خريجيها، مرتبة جامعة. إنّ النزاهة الفكرية التي يتمتّع به ريشار شمالي أكسبه، تجاه بعض طلابه، شهرة في الصرامة، وربّما الصلابة، وهذا صحيح، لكنهما مع ذلك كانتا مصحوبتين بالاهتمام والمودّة تجاه طلابه والمشكلات المتعدّدة التي كانوا من الممكن أن يواجهونها. بعد أن فقد شقيقه روجيه، مدير التعليم التقنيّ والمهنيّ، في الانفجار الذي أودى بحياة الرئيس بشير الجميل، كان مقتنعًا أنّ أفضل طريقة للنضال هي أن ينقل إلى طلابه ليس المعلومات فحسب، ولكن قبل كلّ شيء مبادئ الفكر، والحكم الصائب والقيم. هذا هو التعليم وفقًا لطريقة عمل ريشار شمالي المدعوم بمبادئ التعليم والعارف جيّدًا بها. يتذكّر طلابه، لا بل تلاميذه، مقرّره الشهير في القانون التجاريّ الذي أصرّ فيه على التذكير بأنّ قيم العمل والجدارة هي أفضل وأنبل الأسوار لمحاربة الكارثة التي تتخبّط بها البلاد. في إحدى زيارتي له قبل فترة من رحيله، أطلق العنان لإعادة النظر بالنظام السياسيّ اللبناني ؛ قال لي إنّ الألم الذي كان يطغى عليه هو كيفية تركنا لبنان يغرق في الفساد، والمذهبية والمحسوبية من أعداء القانون والدستور. تحدّث عدّة مرّات عن مهمّته الصغيرة، ألا وهي خدمة جامعة القديس يوسف وكليّتها، كليّة الحقوق والعلوم السياسية، مقدّمًا النصيحة بعدم إبعاد معهد العلوم السياسية في جامعة القديس يوسف عن كليّة الحقوق، لأنّ وجود سياسة أو سياسيون لا يتمتّعون بحسّ مفترض بالقانون هم بائعو أو هام من جميع الأنواع.

تكريمًا لعزيرنا ريشار شمالي، يُعقد هذا المؤتمر، وهو أنّي جدًّا لأنّه يمسنّا عن كُتب، في ودائعنا المصرفية غير القابلة للاستخدام من طلابنا، وفي ودائع مئات الآلاف من المتقاعدين، والمتقاعدين من المهن الحرّة، وفي ميزانيّتنا ونفقّاتنا، وفي أزمتنا الماليّة والسياسية والمصرفية ! تكريم الأستاذ ريشار شمالي يعني أنّ الحرية الأكاديمية لدعوة المحاضرين من جميع الجهات مقدّسة ولن يجرؤ أحد، لا في جامعة القديس يوسف ولا في أي مكان آخر، على التلاعب بها أو منعها ! بالنسبة إلى موضوع بهذا القدر من الحساسيّة مثل حقوق المودعين، يجب أن تكون دعوة الأشخاص الذين يمكن أن يتعارضوا مع بعضهم البعض هي القاعدة للتحدّث وأيضًا لتوجيه الجميع نحو حلول قادرة على إخراج البلاد من الكارثة التي ترزح تحت وطأتها !